البَابُ الثالث

التشوف إلى معرفة العيوب

ثم افتتح الباب الثالث بذكر التخلية والتحلية فقال رضى الله عنه :

[تشوّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوّفِك إلى ما حجب عنك من الغيوب] .

التشوف إلى الشيء : الاهتمام به والتطلع له .

قلت : تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب ، كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة ، وهم الرزق وخوف الفقر وطلب الخصوصية ، وغير ذلك من العيوب ، والبحث عنها ، والسعى فى التخلص منها أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد ، وما يأتى به القدر من الوقائع المستقبلة ، وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له ، لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب فى حياة قلبك ، وحياة قلبك سبب فى الحياة الدائمة والنعيم المقيم ، والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول ، وقد يكون سببًا فى هلاك النفس ، كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس ، وسيأتى للشيخ : من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببًا يجر الوبال عليه .

واعلم أن العيوب ثلاثة : عيوب النفس ، وعيوب القلب ، وعيوب الروح .

فعيوب النفس : تعلقها بالشهوات الجسمانية ، كطيب المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح ، وشبه ذلك .

وعيوب القلب : تعلقه بالشهوات القلبية ، كحب الجاه والرياسة والعز والكبر والحسد والحقد ، وحب المنزلة والخصوصية ، وشبه ذلك مما يأتى إن شاء الله فى أوصاف البشرية .

وعيوب الروح : تعلقها بالحظوظ الباطنية ، كطلب الكرامات والمقامات

والقصور والحور، وغير ذلك من الحرف ، فتشوف المريد إلى شيء من ذلك كله ، قادح فى عبوديته ، مانع له من القيام بحقوق ربوبيته ، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية ، وسعيه فى التطهير من جميع ذلك أولى من تشوفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب كما تقدم ، وبالله التوفيق .

ولما ذكر التخلية ذكر ثمرتها وهى التحلية بالمعرفة ، إذا مامنع منها إلا تشوف النفس أو القلب أو الروح إلى حظوظها الوهمية فقال :

[الحق ليس بمحجوب عنك ، إنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده] .

قلت : الحق تعالى محال فى حقه الحجاب ، فلا يحجبه شيء ، لأنه ظهر بكل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء ، فلا ظاهر معه ، ولا موجود سواه ، فهو ليس بمحجوب عنك ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، لاعتقادك الغيرية ، وتعلق قلبك بالأمور الحسية ، فلو تعلق قلبك بطلب المولى وأعرضت بالكلية عن رؤية السوى ، لنظرت إلى نور الحق ساطعًا فى مظاهر الأكوان ، وصار ما كان محجوبًا عنك بالوهم فى معد الشهود والعيان ، ولله در القائل :

لَقَدْ تَجَلَّى ما كان مُخَبَّىْ ... وَالْكَوْنَ كُلُّهُ طَوَيْتُ طَيّ
مِنِّى عَلَىَّ دارتْ كؤوسِى ... مِنْ بَعدِ مَوْتِى تَرانِى حَىّ

فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون ، وكلهم فى البحر ولا يشعرون . وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم ، والوهم أمر عدمى لا حقيقة له اهـ . وسيأتى للشيخ : ما حجبك عن الحق وجود موجود معه ، إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه اهـ . إذ لو حجبه تعالى شيء حسى لستره ذلك الحجاب ، ولو كان له ساتر حسى لكان لوجوده حاصر ، إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، كيف والله تعالى يقول :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)[١] .

أى لأنهم فى قبضته ، وتحت تصريف قدرته ، وتخصيص إرادته ومشيئته . والفوقية : عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان ، كما يقال : السلطان فوق الوزير والسيد فوق عبده ، والمالك فوق المملوك ، وغير ذلك مما يثبت الكبرياء وينفى سمات الحدوث ، والله تعالى أعلم .

ولما كان حجاب الروح عن المعرفة أمرًا وهميًّا عدميًّا لا حقيقة له وهو مرضها بأوصاف البشرية ، فلو صحت لعرفت ، أشار إلى ذلك بقوله :

[اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق مجيبًا ، ومن حضرته قريبًا] .

قلت : أوصاف البشرية هى الأخلاق التى تناقض خلوص العبودية ، ومرجعها إلى أمرين :

الأول : تعلق القلب بأخلاق البهائم ، وهى شهوة البطن والفرج ، وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية . قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)[٢] الآية .

الثانى : تخلقه بأخلاق الشياطين ، كالكبر والحسد ، والحقد والغضب ، والحدة وهى القلق ، والبطر : وهى خفة العقل ، والأشر : وهو التكبر ، وحب الجاه والرياسة ، والمدح ، والقسوة والعطاء والفظاظة والغلظة ، وتعظيم الأغنياء ، واحتقار الفقراء ، وكخوف الفقر وهَمِّ الرزق ، والبخل والشح ، والرياء والعُجب ، وغير ذلك مما لا يحصى حتى قال بعضهم : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات .

وقد ألف الشيخ عبد الرحمن السلمى كتابًا فى عيوب النفس وأدويتها ونظمه الشيخ زروق فى نحو ثمانمائة بيت ، ومن ألقاه الله إلى شيخ التربية فلا يحتاج

---

(١) الأنعام : ٦١ .

(٢) آل عمران : ١٤ .

إلى شيء سوى الاستماع والاتباع ، فإذا خرج المريد من أخلاق البهائم تخلق بأخلاق الروحانيين ، كالزهد الورع والقناعة والعفة ، والغنى بالله ، والأنس به . وإذا خرج من أخلاق الشياطين تخلق بأخلاق المؤمنين، أو بأخلاق الملائكة ، كالتواضع وسلامة الصدور ، والحلم والسكينة والرزانة ، والطمأنينة والسهولة والليونة ، والخمول ، والاكتفاء بعلم الله ، والشفقة والرحمة ، وتعظيم الفقراء والمساكين ، وأهل النسبة وجميع الأمة ، والكرم والسخاء والجود والإخلاص ، والصدق والمراقبة والمشاهدة والمعرفة ، فإذا تخلق العبد بهذه الأخلاق وتحقق بها ذوقًا بعد أن تخلص من أضدادها ، كان عبدًا خالصًا لمولاه ، حرًّا مما سواه ، وكان لندائه مجيبًا ، ومن حضرته قريبًا ، فإذا قال له ربه : ياعبدى قال له : يارب ، فكان صادقًا فى إجابته لصدق عبوديته ، بخلاف ما إذا كان منهمكًا فى شهواته الظاهرة والباطنة كان عبدًا لنفسه وشهواته . فإذا قال : يارب كان كاذبًا ، إذ من أحب شيئًا فهو عبد له ، وهو لا يحب أن يكون عبدًا لغيره ، وإذا تخلص من رق الشهوات والحظوظ كان أيضًا قريبًا من حضرة الحق بل عاكفًا فيها ، إذ ماأخرجنا عن الحضرة إلا حب هذه الخيالات الوهمية ، فإذا تحررنا منها وتحققنا بالعبودية وجدنا أنفسنا فى الحضرة .

واعلم أن هذه الأوصاف البشرية التى احتجبت بها الحضرة إنما جعلها الله منديلا لمسح أقذار القدر ، كالنفس والشيطان والدنيا ، فجعل الله النفس والشيطان منديلا للأفعال المذمومة ؛ وجعل البشرية منديلا للأخلاق الدنيئة ، وما ثم إلا مظاهر الحق وتجليات الحق ، وما ثم سواه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم إن هذه العيوب سبب بقائها فى الإنسان باعتبار الحكمة هى الغفلة عن البحث عنها ، وسبب الغفلة عن البحث عنها هو الرضا عن النفس ، إذ لو أساء ظنه بها لبحث عن مساويها فاستخرجها وتطهر منها ، فلذلك قال :

[أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس] .

قلت : إذ كل من رضى عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساويها ، لقول الشاعر :

* وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *

[وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها] .

قلت : لأن من اتَّهم نفسه ، وأساء ظنه بها ، ونظر إليها بعين السخط بحث عن عيوبها واستخرج مساويها ، لقول الشاعر :

* وَلٰكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِى المَسَاوِيَا *

فابحث أيها المريد عن مساويك واتّهم نفسك ، ولا تستحسن شيئًا من أحوالها ، فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر ، وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر .

قال أبو حفص الحداد : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ولم يجرَّها إلى مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورًا . ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَارَحِمَ رَبِّى)[1] .

وفى معنى ذلك أنشدوا :

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

وقال السرى السقطى : من عرف الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يروح ويغدو فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش اهـ .

فابحث يا أخى عن عيوبك إن أردت نصح نفسك ، فإذا بحثت عن عيوبها وفضحت عوراتها ، تخلصت وتحررت ، وتحققت ، ودخلت الحضرة ، واتسعت لك النظرة ، واشتكت لك الفكرة .

وكان شيخ شيخنا يقول : لعنة الله على من ظهرت له عورة نفسه فلم يفضحها . وكان أيضًا كثيرًا ما يوصى بعدم المراقبة للناس وعدم المبالاة بهم ،

---

(١) يوسف : ٥٣ .

إذ لا يتخلص من دقائق الرياء إلا بإسقاطهم من عينه وسقوطه هو من عينهم .
ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلّص ، ولذلك قال :

[ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه] .

قلت : إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض ، لتحققه بالإخلاص ، فيسرى ذلك فى الصاحب حتى يتحلى بالإخلاص ، ويصير من جملة الخواص ، وصحبة من يرضى عن نفسه شر محض ، ولو كان أعلم أهل الأرض ، لأن الطباع تسرق الطباع ، إذ الجهل الذى يقرب للحضرة أحسن من العلم الذى يبعد عن الحضرة ، ولذلك قال بعض العارفين : أشد الناس حجابًا عن الله العلماء ، ثم العباد ، ثم الزهاد ، لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم ، والجهل الذى يوصل إلى الله علم على الحقيقة ، والعلم الذى يحجب عن الله جهل على الحقيقة ، ولذلك قال :

[فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟] .

قلت : لأنه صار حجابًا له عن ربه ، ثم قال :

[وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ؟] .

قلت : إذ بعدم الرضا عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقّها ، فصار عبدًا حقيقة لله فحينئذ أحبه سيده ، واصطفاه لحضرته ، واجتباه لمحبته ، وأطلعه على مكنون علمه ، فكان أعلم خلقه ، والله تعالى أعلم .

وإذا تخلص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته ، قرب من حضرة ربه ، لصحة قلبه وإشراقه بنور ربه ، ثم امتحق وجوده فى وجود محبوبه ، وشهوده فى شهود معبوده ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك ، كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان] .

قلت : البصيرة ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر القلب ، فالبصيرة ترى المعانى اللطيفة النورانية ، والبصر يرى المحسوسات الكيفية الظلمانية الوهمية .

ثم البصيرة باعتبار إدراك نور المعانى اللطيفة عل خمسة أقسام : قسم فسد ناظرها فعميت ، فأنكرت نور الحق من أصله ، قال سيدى البوصيرى :

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهذه بصيرة الكفار . قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فى الصُّدُورِ)[1] .

وقسم صح ناظرها لكنها مسدودة لضعف ناظرها لمرض أصابه ، فهى تقر بالنور لكنها لا تقوى على مشاهدته ، ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها ، وهى لعامة المسلمين .

وقسم صح ناظرها وقوى شيئًا ما ، حتى قرب أن يفتح عينه ، ولكن لشدة الشعاع لم يطق أن يفتح عينه فأدرك شعاع النور قريبًا منه ، وهو لعامة المتوجهين ، ويسمى هذا المقام شعاع البصيرة .

وقسم قوى ناظرها ففتح عين بصيرته فأدرك النور محيطًا به حتى غاب عن نفسه بمشاهدة النور ، وهذا لخاصة المتوجهين ، ويسمى هذا المقام عين البصيرة .

وقسم صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل نورها بنور أصلها ، فلم تر إلا النور الأصلى ، وأنكرت أن يكون ثم شىء زائد على نور الأصل ؛ كان الله ولا شىء ، وهو الآن على ما عليه كان ، ويسمى هذا حق البصيرة ، ووجه تسميته بشعاع البصيرة أن صاحبها لما كان يرى وجود الأكوان انطبعت فى مرآة بصيرته ، فحجبته عن شهود النور من أصله ، لكن لما رقّت كثافتها وتنورت دلائلها ، رأى شعاع النور من ورائها قريبًا منه ، فأدرك الشعاع ولم يدرك النور ، وهذا هو نور الإيمان ، وهو مقام علم اليقين .

ووجه تسمية عين البصيرة : أن البصيرة لما صحت وقويت انفتحت عينها فرأت النور محيطًا ومتصلا بها ، فسميت عين البصيرة ، لانفتاحها وإدراكها ما خفى على غيرها ، وهذا مقام عين اليقين .

---

(١) الحج : ٤٦ .

ووجه تسمية حق البصيرة : أن البصيرة لما أدركت الحق من أصله وغابت عن نور الفروع بنور الأصول ، سميت حق البصيرة ، لما أدركته من الحق ، وغابت عن شهود الخَلْقِ ، وهذا مقام حق اليقين ، فشعاع البصيرة هو نور الإيمان لأهل المراقبة ، وعين البصيرة هو نور الإحسان لأهل المشاهدة ، وحق البصيرة هو نور الرسوخ والتمكين لأهل المكالمة .

أو تقول : شعاع البصيرة نور علم اليقين ، وعين البصيرة هو نور عين اليقين ، وحق البصيرة هو نور حق اليقين .

فعلم اليقين لأهل الدليل والبرهان ، وعين اليقين لأهل الكشف والبيان ، وحق اليقين لأهل الشهود والعيان . مثال ذلك : كمن سمع بمكة مثلا ولم يرها ، فهذا عنده علم اليقين ، فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فهو عين اليقين ، فإذا دخلها وتمكن فيها فهو حق اليقين ، وكذلك طالب الحق ، فمازال من وراء الحجاب فانيًا فى الأعمال فهو فى علم اليقين ، فإذا استشرف على الفناء فى الذات ولم يتمكن من الفناء فهو عين اليقين ، فإذا رسخ وتمكن فهو فى حق اليقين .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل عالم الملك ، وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل الفناء فى الأعمال ، وعين البصيرة لأهل الفناء فى الذات ، وحق البصيرة لأهل الفناء فى الفناء . فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك : أى يوجب لك شهود قرب نور الحق منك . قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[1] وقال تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[2] .

وعين البصيرة يشهدك عدمك : أى زوالك بزوال وهمك لوجوده أى وجود الحق ، إذ محال أن تشهد معه سواه ، فإذا زال عنك الوهم وفنيت عن وجودك ، شهدت ربك بربك ، وهو علامة فتح البصيرة ، وعلاج السريرة كما قال شيخ

---

(١) سورة ق : ١٦ .

(٢) سورة الحديد :٤ .

شيوخنا عبد الرحمن المجذوب :

مَنْ رَأَى الْمُكَوِّنَ بِالْكَوْنِ عَـزِّهِ فى عَمَى البَصِيرَةِ
وَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ بِالْمُكَوِّنِ صَـادَفَ عِلَاجَ السَّـرِيرَةِ

فظاهره أن عامة المسلمين عميت بصيرتهم . والتحقيق هو ما تقدم من التفصيل ، وأنها مسدودة فقط مع صحة ناظرها ، بخلاف بصيرة الكفار فإنها عمياء ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لا وجودك ، لأنك مفقود من أصلك وعدمك ، إذ لا يعدم إلا ماثبت له وجود ، ولم يكن مع الله موجود . كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان . وهذه الزيادة وإن لم تكن فى الحديث لكن معناها صحيحٌ ، إذ التغير عليه تعالى محال .

قال محيى الدين بن محمد بن على بن العربى الحاتمى رضى الله عنه : من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد جاز ، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل اهـ .

قلت : ومن شهدهم بعين العدم فقد تمكن وصاله ، وأنشدوا :

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كالسَّرابِ فَقَدْ تَرَقّى عَنِ الْحِجَابِ
إِلَى وجُـودٍ تَـرَاهُ رَتْقًـا بِلَا ابْتِعَادٍ وَلَا اقْتِـرابِ
فَـلَا خِـطَابَ بِـهِ إِلَيْـهِ وَلَا مُشِـيرَ إلى الْخِطَابِ

والله تعالى أعلم .